الاتجاهات الحديثة في التفسير

مقاربة تاريخية

عبد الجبار الرفاعي

-٣-

دشن السيد الشهيد محمد باقر الصدر حركته في مناهضة الاستبداد الصدامي، بسلسلة دروس في التفسير ألقاها على طلاب الحوزة العلمية في النجف الأشرف بدأها ببيان الثغرات المنهجية في الاتجاه التجزيئي السائد والمتوارث للتفسير، وأوضح (ان قروناً من الزمن متراكمة مرت بعد تفاسير الطبري والرازي والشيخ الطوسي، لم يحقق فيها الفكر الاسلامي مكاسب حقيقية جديدة، وظل التفسير ثابتاً لا يتغير إلاّ قليلاً خلال تلك القرون، على الرغم من ألوان التغير التي حفلت بها الحياة في مختلف الميادين).

وخلص الصدر إلى ضرورة تبني اتجاه جديد في التفسير، يتحرر فيه التفسير من الحالة التكرارية، التي اقعدته عن التطور والنمو، ويخلص النص القرآني من الآراء والافكار المختلفة التي راكمها المفسرون حول هذا النص، فأبعدته عن الواقع.

الاتجاهات الحديثة

تنوعت اتجاهات التفسير في القرن الأخير، وظهرت في اطار كل واحد من هذه الاتجاهات اجتهادات متعددة، عبرت عن نفسها بآراء وتسميات، عادة ما تلتقي بمحور مشترك، تتوحد فيه أصولها ومنطلقاتها وغاياتها، وان كانت لا تتوحد في ادوات استنطاق النص، وأساليب صياغة المفاهيم القرآنية.

وفي مراجعة سريعة لمدونات التفسير والدراسات القرآنية الحديثة، يمكن استخلاص ابرز الاتجاهات التي ترسمها المفسرون في أعمالهم، مع العلم ان بعض مدونات التفسير تلتقي في ثناياها عدة اتجاهات يستند اليها المفسر في معالجة النص واستكناه دلالاته. وفيما يلي اشارات موجزة تعرف بهذه الاتجاهات في التفسير:

١. التفسير العلمي:

يعتمد هذا اللون من التفسير على تحكيم الفرضيات والنظريات والقوانين العلمية في معاني آيات الكتاب الكريم، وبذل محاولات تأويلية تتجاوز المدلول الظاهر للآية أحياناً، واسقاط كل مايمت للعلم الحديث بصلة على النص القرآني، بغية القول بتطابق مدلوله مع معطيات العلم الحديث.

وترتد هذه النزعة إلى عدة قرون تسبق العصر الحديث، كما نلاحظ لدى الغزالي في (جواهر القرآن)، والفخر الرازي في (التفسير الكبير)، والزركشي في ؟البرهان في علوم القرآن؟، والسيوطي في (الاتقان في علوم القرآن)، وغيرهم.

لكن تعرف المسلمين على مكاسب العلوم الحديثة ومنجزاتها الواسعة، أوجد أرضية جديدة للتفسير العلمي، فعمد بعض المفسرين إلى اقتباس معطيات العلم وتطبيقها على النص القرآني، وكانت أقدم محاولة في هذا المضمار في العصر الحديث لمحمد بن أحمد الاسكندراني الطبيب من أهل القرن الثالث عشر الهجري، ومؤلف كتاب(كشف الأسرار النورانية القرآنية فيما يتعلق بالأجرام السماوية والأرضية والحيوانات والنباتات والجواهر المعدنية) المطبوع في القاهرة سنة١٢٩٧هـ .

ثم ظهرت الكثير من المؤلفات بمرور الزمن في التفسير العلمي، غير ان اشهر هذه المؤلفات وأوسعها، هو (الجواهر في تفسير القرآن الكريم) للشيخ طنطاوي جوهري، الذي مزج فيه -كما يقول- الآيات القرآنية بالعجائب الكونية والبدائع الأرضية، وجعل آيات الوحي مطابقة لعجائب الصنع، وكان يرمى إلى ان يكون كتابه هذا (داعياً حثيثاً إلى درس العوالم العلوية والسفلية، وليقومن من هذه الأمة من يفوقون الفرنجة، في الزراعة، والطب، والمعادن، والحساب، والهندسة، والفلك، وغيرها من العلوم والصناعات).

وبالرغم من ان تفسير طنطاوي جوهري اشتمل على مباحث واشارات عديدة تعالج مشكلات التخلف، وتدعو إلى مقاومة الاستعمار، والثورة ضد الاحتلال، ومناهضة الاستبداد، الا ان النزعة العلمية طغت على هذا التفسير، فاستغرق صاحبه في اقتباس الفرضيات والحقائق العلمية، وتطبيقها على الآيات القرآنية، بمناسبة أو غير مناسبة، مما أثار حفيظة الكثير من الدارسين، الذين رأوا في طريقة طنطاوي جوهري اسرافاً ومبالغة مفرطة في مزج فروض العلم واحتمالاته وقوانينه بمعاني القرآن، فظهر تيار يعارض هذا الاسلوب في التفسير، ويحذر بشدة من التفسير العلمي للقرآن. غير ان الكثير من المفسرين في العصر الحديث أفاد من نتائج الاكتشافات العلمية، ففسروا بعض الآيات التي تتحدث عن الظواهر الطبيعية على ضوء هذه الاكتشافات. وصدرت مجموعة دراسات تعالج قضية الاعجاز العلمي، وتسعى للاستعانة بشيء من معطيات العلوم الحديثة في البرهان على اعجاز القرآن.

٢. التفسير الأدبي:

ظلت البلاغة القديمة تتناول النص القرآني تناولاً جزئياً، يهتم بالخصائص الدلالية والجمالية للكلمة والجملة والفقرة، من دون ان يتعدى ذلك لتحليل الخصائص المفهومية والفنية للنص بتمامه، من خلال تشخيص النسيج العضوي الذي تنتظم في سياقه الفقرات بمجموعها، فتشكل وحدة موضوعية، تشي بدلالات اضافية لا يحكيها التناول الجزئي للنص، مضافاً إلى ان محاولة استجلاء الصورة الفنية للنص بملاحظة جمله وفقراته كوحدات مستقلة غير مترابطة، لن يؤدي إلى خفاء تلك الصورة فحسب، وانما يعكس لنا دلالات مبعثرة وصوراً مشتتة، بمثابة ما يرتسم من صور في المرآة المهشمة، (فمثلاً لو تناولنا سورة الكهف وأخضعناها للتناول الجزئي، لما خرجنا بأكثر من آيات أو جُمل متناثرة، منفصل بعضها عن البعض الآخر، على نحو الأعضاء المنفصلة عن جسم الانسان، كاليد أو الوجه أو الصدر لكننا لو اخضعناها للتناول الكلي لخرجنا بنتيجة اخرى، هي مواجهتنا لنص فني متناسق الأجزاء على نحو التناسق الذي نلحظه في تركيبة الجسم البشري، أو سائر الأجسام والأشكال الطبيعية).

وعلى هذا الضوء انتهجت جماعة من المفسرين في العصر الحديث منهجاً جديداً في التفسير الأدبي للقرآن، يستند إلى استجلاء الوحدة الموضوعية والوشائج العضوية التي تربط الآيات والسور القرآنية.

وقد بدأت بذور هذا الاتجاه في التفسير تظهر في تفسير محمد عبده ومحمد رشيد رضا ومحمد مصطفى المراغي، لكن جهودهم في هذا الصدد لا تتعدى الاشارات واللمحات العابرة.

اما الولادة الحقيقية للتفسير الادبي الحديث، وتبلور أصوله النظرية، وتدشين تلك الاصول في تجارب تفسيرية، فقد تبلورت على يد الشيخ أمين الخولي وتلامذته، حيث أصّل أمين الخولي بعض المرتكزات المنهجية لهذا الاتجاه في بحثه الذي كتبه تعليقاً على مادة (التفسير) في (دائرة المعارف الاسلامية). ثم توسع في بيانه في بحوث أخرى، وتمثلت تلميذته الدكتورة بنت الشاطي شيئاً من هذه المرتكزات في كتابها (التفسير البياني للقرآن الكريم)، وأوردت مستخلصاً في مطلع كتابها لضوابط التفسير التي رسمها أستاذها واستندت اليها في تفسيرها، بما يلي:

١- الأصل في المنهج: التناول الموضوعي لما يراد فهمه من القرآن، ويبدأ بجمع كل ما في الكتاب من سور وآيات في الموضوع المدروس.

٢- في فهم ما حول النص: ترتب الآيات فيه على حسب نزولها، لمعرفة ظروف الزمان والمكان، كما يستأنس بالمرويات في أسباب النزول من حيث هي قرائن لابست نزول الآية.

٣- في فهم دلالات الألفاظ: تلتمس الدلالة اللغوية الأصيلة، التي تعطي حس العربية للمادة في مختلف استعمالاتها الحسية والمجازية، ثم يخلص للمح الدلالة القرآنية باستقراء كل ما في القرآن من صيغ اللفظ، وتدبر سياقها الخاص في الآية والسورة، وسياقها العام في القرآن كله.

٤- في فهم أسرار التعبير: يُحتكم إلى سياق النص في القرآن، بالالتزام بما يحتمله نصاً وروحاً. وتعرض عليه أقوال المفسرين، فيقبل منها ما يقبله النص، ويتحاشى ما أُقحم على كتب التفسير من مدسوس الاسرائيليات، وشوائب الأهواء المذهبية، وبدع التأويل.

شطحات النقطة

شعر : أديب كمال الدين

(١)

أدافعُ عن حرف ليس لي
أدافع عن نونٍ لهَا مالها
وعن جيمٍ تقوّد طفولتي
نحو فراتٍ من السكاكين
وعن شينٍ مَقدسةٍ من تراب.

(٢)

أخذوا النونَ واستووا عليها
فكانت لهم مِركباً طيباً
ولي سندباد خوفٍ ونارٍ وموجٍ وتيه
وأخذوا الجيم
واغتالوا شبابها في توابيت من خمر
وتوابيت تنضح ماء
يمر من تحت قدميّ المذعورتين
وأخذوا الشين
صارتْ بأيديهم أساطيرَ من ذهب
ودولاً من سوادٍ وخوف
وتبادلوا الدورَ مع من حُملَ رأسي اليه
فقالوا وهم يذرفون الدموع :
باسمكِ أيها الرأس المثقل بالأسى والحروف
نؤسس مملكةً للحتوف
سنرقصُ فيها على الطبل
ونتركك في عطشٍ ترتجف
في جلالٍ ونورٍ تموت.

(٣)

كيف لي أن أدافع عن حرف ليس لي
ونخلة لم أعد أجلس تحت أغصانها ؟
كيف ليّ أن أدافع
عن زمنٍ أزرقَ له عريه الذهبي
وناره السوداء ؟
عن زمنٍ ليس يعرفني
ليس يعرفُ أحداً أبداً ؟
كيف لي أن أدافع
عن ملحمةٍ لها شاعرها الذكيّ الدعيّ
وكتابٍ له مؤلفه اللوذعيّ ؟

(٤)

أدافع ؟
كيف أدافع عن أبجديتي
وأنا الذي رماني السحرة بلوحٍ من النار
ورماني الغجر بحجارة من سجّيل
ورماني الرماة بسهمٍ من الحقد ؟
كيف لي ،
بعد هذا جميعا ،
أن أدافع عن
حرفي
وأمنحه ماءَ
قلبي وشمس
كينونتي ؟

رسالة الديوانية الثقافية

المشهد الثقافي في الديوانية .. الرؤى - الواقع - التطلعات

فراس عبد الجليل الشاروط

حين قرر الفرات تحديد قامتها الجميلة من ضمن خريطة الجمال العراقي ليضعها أمام الصباح عروساً أخرى جميلة منحها في الوقت ذاته كثيرا من الصفات التي تميزه، لكنها وعلى مدى السنوات قررت أن تكون لها من الخصائص الذاتية ما يجعلها تتسم بالفرادة، وهكذا كانت، الديوانية دائما حتى حين غزتها فيالق الشيطان لتعيث في الأرض فسادا وتهلك الزرع والحرث والنسل وتقرر مصائر العباد لم يتعطل الوعي في جهة ما، وعمل البعض على تكوين خط أمان أو حماية للمحافظة على الثقافة الحرة، ثقافة الإنسان الذي يكون في روعة تجلياته أقوى من كل طاغية.

من هنا انتشرت ثقافة الضد أو المقاومة... والمقاومة هنا تعني أيجاد ثقافة تتصدى للجهد المبذول من قبل دولة الصنم لتغيير بنى المجتمع ومحو ذاكرته الممتدة لآلاف السنين وإحلال ثقافة المسخ التي لا تعني إلا صوت الصنم ومقارباته الشيطانية، ومهما تصاعدت وتيرة العنف والأساليب الرخيصة ازددنا صلابة وتمسكا بما نؤمن ونقوم به حتى اضطررنا إلى ممارسة الثقافة الشفاهية لزمن ليس بالقصير، وبعد إعدام الكتب والمقابر الجماعية للثقافة واغتصاب السينما وبكل الطرق المتاحة لديهم.

وحين سقط الصنم قلنا زمان مضى، وزمان جديد آت سنأخذ فيه كلماتنا إلى للنهر... نعانق النساء حين يطل القمر ونمنح الصوت مساره المستقيم، لكن ما حصل كان كارثة بطعم ومعنى آخر أكثر هدوءاً ، ولم تعد الديوانية بعد التغيير تتميز بشيء خاص بها.

وإذا أردنا تقييم عمل المؤسسات الرسمية وغير الرسمية لا نرى من الأمر ما يمكن إطلاق اسم الثقافة عليه، فابتداء بالمحافظة ومجلسها المنتخب يجري العمل بإصرار على تهميش كل أنواع الثقافة الأخرى التي لا تمت لحزبهم بصلة، ونعتقد أن أي حزب مهما كان نوعه لا يمتلك ثقافة خارج النظم المؤدلجة التي تسخر فقط للعمل الحزبي وإدامته، من هنا جاءت مبادرة السيطرة على الإذاعة وإزاحة كادرها القديم وتعيين كادر من الإخوة المنتمين للأحزاب الدينية ذات الثقل الأكبر في مجلس المحافظة، كمثال واضح على الإصرار للتفرد بالإعلام وفق خطة عمل لا تختلف عن أية هيمنة ايجابية كانت أم سلبية، المهم إنها تمارس ثقافة إلغاء الآخر ، واختيار ما يحب ويكره دون الاهتمام بسؤاله ولو لمرة... فالأغاني ممنوعة بكتاب رسمي من السيد مدير الإذاعة خريج كلية الفنون الجميلة إلى مجلس المحافظة، فالأغاني ككل أنواع الفنون والأدب يتم تجاوزها ، مرة أخرى الرقابة على ألذات والآخر دون طلب من السلطة، وبالطبع تأتي الموافقة من مجلس المحافظة على كتاب السيد مدير الإذاعة مع استثناء يقول ((ما عدا الأناشيد الوطنية وأناشيد الأطفال)) ولنتمعن جيدا في المقطع فالكتاب يقول أناشيد وليست أغاني ، فكلمة أناشيد اخف وطأة وكفرا من كلمة أغاني، وإذا قلنا معهم(نعم) نوافق على ذلك فهل البديل تكثيف الحضور الشخصي للمسؤولين والاخوانيات ، وما يحز في النفس إن بعضا من الكادر السابق للإذاعة كان يعمل بشكل مختلف عما هو عليه الآن مع الكادر الجديد، كل هذه المتناقضات أدت إلى أن يؤول الأمر لتوقف الإذاعة وإغلاقها وكالعادة يتم الأمر بصمت وسرية ودون تبرير فلا أحد يسأل وليس هنالك من يجيب، فالكل مستعد لإطاعة أوامر الأخ الأكبر.

وهذا الحال يسري على إدارة تلفزيون الديوانية كذلك لكنه يتميز بسحر ابلغ من الإذاعة فالكل يسمع عنه ولا يراه إلا لمن يعنيه أمر متابعة اجتماعات المحافظ وزياراته، وكأن البث مجرد فواصل إعلانيه في فيلم قديم، ولم يتجرأ العاملون غير أن يكونوا مجرد موظفين كسالى تضجرهم روتينية الأوامر لكنهم لا يجدون في أنفسهم الجرأة على العمل الخلاق لأنهم جميعا ليسوا من ذوي الاختصاص بمن فيهم السيد مدير التلفزيون لذا ترى إن الجميع نساهم وتناساهم ويشكرون كثيرا اختراع الستلايت ، والمشهد لا يتغير كثيرا مع جريدة الديوانية.

وتتسع الخيبة حين نقترب من الجامعة التي تشبه كثيرا في ملامحها الفك المفترس، فهذا الصرح المعماري يبدو كأنه شيد في غير أرضه وزمانه فلا رابط بين الجامعة والمحافظة أبدا ولا يلتقيان سوى بإصدار الثاني إلى الأول إيعازاً بان اليوم الفلاني عطلة، ولم تعمل الجامعة ومنذ تأسيسها على إنشاء علاقة ما مع المحافظة واقصد هنا المدينة لا المؤسسة، لا من الجانب الرسمي حيث يظهر ذلك بوجودها في المشتركات الرسمية لدوائر المدينة، ولا احتضانها لأي بادرة علمية بصفتها الصرح العلمي الأبرز والأكبر ولا جذبها أو رعايتها لأدباء المحافظة في عمل أدبي أو فني فهي اكتفت بما لديها من أدباء لكنها لم تسخر الأمر بما يعود بالفائدة الأدبية والعلمية لا للجامعة ولا للمدينة وبقي الحال مقتصرا على الاحتفالات الروتينية الوظيفية، وما تأسيس المركز الثقافي في الجامعة سوى خدعة كبيرة فهذا المركز قد أسس لأقامة المآدب وعقد الصفقات، فكانت المحصلة النهائية تجاهلاً من قبل الجامعة وازدراء بيناً من قبل الناس، وهذا الأمر ساعد عليه أدباء الجامعة كثيرا ولا نعتقد إن هناك اكبر من قتل الحياة بكل معانيها التي اعتاد الإنسان على التمسك بها لإجباره ثانية على خلق مفاهيم أخرى للأشياء السابقة، فكيف يمكن قتل السينما بأنه لمصلحة المجتمع، فحياة بلا سينما حياة دون بذخ أنساني، دون صورة لما يجري، بل حياة متخيلة لا حياة معيشة وما أصعب ذلك، وعملية تحويل السينما إلى محال تجارية ومخازن وحتى حمام شعبي لهي عملية اقتصادية مربحة وآمنة، لكن أين لنا بتعويض عن هذا الجانب السحري الغريب من حياتنا، التي تحولت الآن إلى ماء راكد في جرار الثعالب ومكان لا يستطيع أحد الوصول إليه بعد أن كانت السينما رائحة للطفولة العذبة وللمكان، حتى أصبحنا نعد سنين ونؤرخ حياتنا بعدد ونوعية الأفلام التي عشقناها أو التي نكرهها أو نخاف منها.

طبعا لا احد أصدر أمرا بغلق السينمات لكنه التطور الطبيعي لسلوكيات الحياة الغريبة، والتدرج السلطوي للأحزاب والخوف من تبعات أخرى أوصل الحال إلى ما هو عليه، ولم تسع الدولة بكل مفاصلها لتدارك هذا الأمر رغم كل أساليب التذلل التي قدمها الشرفاء لإنقاذ ما يمكن إنقاذه لا بل ربما فرحت لذلك مخافة أن تغضب من يعود غضبه عليها وبالا، أما نقابة الفنانين فهي مغلقة دائما وأتحاد الادباء بدلا من ان يجمع الادباء تحت لوائه شتتهم.

أمام هذا الوضع الغريب والمخيف في آن معا لم تصمت أصوات أو تتراجع واستمرت الكلمة تحافظ على بهائها وعفافها ونضارتها، فكل يوم تولد قصيدة جديدة وقصة أجمل ودراسة أفضل، ونجتهد لمشاهدة الأفلام خلسة وبطرق مبتكرة، نقيم الأماسي والندوات حتى بحضور الضيف وأصحابه فقط فلن ننحني ما دامت كلماتنا كالنخيل قائمة، هكذا تعلمنا من وطن المآسي.

في الختام فقط أقول يجب على الدولة كمؤسسة إن تؤمن بأن أحد الأسباب التي تجعلها مازالت تتخبط في بركة مطامعها هو ابتعادها عن الثقافة ورموزها الشريفة العاملة لأجل الفكر والفن والأدب فقط، عليها رعايتهم كمؤسسة ، ومد يد العون لتنفيذ مشاريعهم التي لا يريدون منها سوى تنمية وعي الفرد، فلا الأدباء ولا الأحزاب لديهم الإمكانية المادية أو المعنوية لذلك وحتى لو توفرت القدرة لدى بعض الأحزاب فلن يكون ذلك خارج مضمار الآيديولوجيا التي سرعان ما تقتل الإبداع، وكذلك فأن اللجوء إلى مؤسسات المجتمع المدني التي كثرت الآن غير مفيد بالمرة لأنهم أدوات جيدة للتسيب والفساد فلا مهرب من مساعدة الدولة ولكن يجب أن يكون الأمر كما أشرت كند له كيانه الخاص لا كواسطة لتمرير الشعارات.